تمهيد

الحمد لله رب العالمين الأول،بلا ابتداء،والآخر بلا انتهاء ، الذي أخرج عباده من الظلمات إلى النور بشريعة تسمو بها الأرواح ، وتنشرح بها الصدور ، أوحاها على خير خلقه ﷺ إلى خير أمة أخرجت للناس،والصلاة والسلام على رسوله الأمين ، الذي اصطفاه لرسالته، وابتعثه بوحيه رحمة للعالمين إلى يوم الدين . أما بعد :

خطة البحث :

إن الهدف من هذا البحث التأكيد على عالمية الإسلام وصلاحيته لكافة البشر في كل زمان ومكان ، وأنه رسالة الله الأخيرة إلى العالمين دونما تمركز ، أو انحصار في بقعة جغرافية أو تجمع حضاري بعينه ، وأن الإسلام تصوير إلهي كامل ، ونسيج رباني يناسب كل العصور والبيئات،محفوظ بحفظ الله ـ عز وجل ـ . ونبدأ في المقدمة بالتساؤل عن الأسباب التي أدت إلى اختراق العلمانية ، وما نتج عنها من فكر للمجتمعات الإسلامية عامة والعربية بشكل خاص في العصر الحديث ، ثم نحاول التأريخ للأسباب الحقيقية لبداية انحراف الأمة عن أمر دينها ، وذلك كتمهيد ضروري لموضوع البحث حول تجديد دين الأمة الإسلامية في عصر العولمة .

❁ وينطلق البحث في الفصل الأول من المراد من مفهوم تجديد دين الأمة الإسلامية ، وإضافة مفهوم جديد لمعنى تجديد دين الأمة الإسلامية ، ثم نتناول ضوابط هذا التجديد ، والذي لم يتوقف في تاريخ الأمة الإسلامية ، وإن اختلف من عصر إلى عصر ، إلا أنه يأخذ شكلاً مختلفا خلال العصر الحديث ـ عصر العولمة الشاملة ـ ،ومرحلة التطبيق العملي لعالمية الإسلام بالمعني الواسع للكلمة .

✪ ويتناول الفصل الثاني مجالات التجديد ، وأنها تشمل كل أمور الدنيا ، والآخرة ، ثم نستعرض بعض مجالات التجديد ، خلال عصرنا الحديث وهي :

- تجديد الفقه الإسلامي .
- تجديد الخطاب الإسلامي .
- تجديد التاريخ الإسلامي .

✪ ويتناول الفصل الثالث نقاش تفصيلي للمفاهيم الخاطئة والادعاءات الكاذبة حول تجديد دين الأمة الإسلامية ؛ لكشف مؤامرات المغرضين والحاقدين من أعداء الإسلام ؛ ولتنبيه من قد يختلط عليه الأمر من المسلمين ؛ وذلك بشرح هذه المفاهيم ، وكشف زيفها وكذب أصحابها وهي :

- النقد التاريخي للقرآن الكريم .
- العصرانية والحداثة ، ونماذج حداثية للقطيعة مع الموروث .
- دعوى التنوير الأوروبي .
- مركسة الإسلام .
- الهزل وغيبة العدالة في تناول الإسلام .
- دعوى أن العصر الحديث قد تجاوز التشريع الإسلامي .

ويتناول الفصل الرابع تجديد دين الأمة في الماضي والحاضر،من خلال استعراض لنماذج متنوعة لبعض المجددين، وما قاموا به من تجديد تجاه دين الأمة الإسلامية ؛ يساعد على إيضاح مفهوم وحقيقة تجديد دين الأمة، وأنه من كمال الدين الإسلامي، ويساعد كافة المسلمين على التمييز بين رواد الفكر الإسلامي الحقيقيين، وبين هؤلاء الذين يضمرون العداء للإسلام ، وكشف مايقومون به من خلط وافتراءات ، لأننا عندما نسعي الآن لبعث الحركة الإسلامية ؛ لابد أن نستوفي البحث في ماهية عمل التجديد ، وأن نعود إلى تاريخنا الماضي فننظر ما

هو مبلغ العمل الذي قام به أئمتنا وهداتنا في القرون الماضية المتعددة ، وأي منهج للعمل اختاروا ، وإلى أي حد نستطيع أن نستفيد من أعمالهم الجليلة ، وما يجب علينا اليوم لما يستجد من أمور خاصة بهذا العصر الذي نعيشه .

❁ وننهي البحث في الفصل الخامس بالحديث عن أهمية تجديد دين الأمة الإسلامية في عصر العولمة الشاملة وأثره على الأمة الإسلامية ، ونشر دعوة الإسلام ، بل وأثره على البشرية جمعاء ، وضرورة تذويب المسلمين لكل خلافاتهم التاريخية والتمسك بثوابت الإسلام ، ورفض البدع ، والتوحد حول الغاية التي ابتعثنا الله ـ سبحانه وتعالى ـ من أجلها ، ولا شك أن المسلمين مسئولون عنها يوم القيامة . قال تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة . ١٤٣] .

obeikandl.com

مُقَدِّمَة

عند محاولتنا البحث في أمر تجديد دين الأمة الإسلامية فإن البدء الصحيح لهذا الموضوع يقودنا لأن نتساءل ونسأل أنفسنا لماذا انتقلت إلينا العلمانية ، وكل ما تولد عنها من أفكار ، وكيف اخترقت مجتمعاتنا الإسلامية واحتلت مكاناً فيها ؟ ولابد أن تكون الإجابات عميقة ومفصلة ، فمجتمعاتنا لم تتشابه مطلقاً مع أوروبا في العصور الوسطى ، كما لا توجد سلطة دينية ، أومحاكم تفتيش تأمر بالحرق ، والتعذيب ، والسجن ، والتشريد ، ولايوجد لدينا ـ في الإسلام ـ حجر على القلوب ، ولا يوجد حجر على العقول . وهذا لاينكره أحد ، ويرده كافة كتابنا ودارسينا ، وديننا محفوظ بحفظ الله سبحانه وتعالى ، ولم تعبث بثوابته يد بشرية، فلماذا انتقلت إلينا العلمانية وما نتج عنها من أفكار؟! .

- فهل انتقلت إلينا نتيجة للتطور المادي الذي وصل إليه الغرب أو الشرق الغير مسلم ؟ .
- أم انتقلت إلينا نتيجة فساد وتخلف مجتمعاتنا ؟ .
- أم انتقلت نتيجة هذه الحالة الفكرية الضحلة التي وصلنا إليها ؛ ولأنها وجدت فراغا في عقولنا ، أي أننا أفرغنا الإسلام من داخلنا ، أو جزءاً كبيراً منه فتسربت إلينا العلمانية ، وملأت هذا الفراغ ؟ .
- أم أنها خطة استعمارية جديدة تستهدف الاستيلاء على ثرواتنا ؟ أم أنها خطة عدائية للإسلام والمسلمين فهي مؤامرة شاملة ؟ .
- أم هل تسللت إلينا بعد أن أجهدنا عقولنا ، وأنهكنا أنفسنا في صراع مذهبي ابتلعنا وترك فراغا في مجتمعاتنا ، كان ملائماً لان تسكنه العلمانية ، وما ينبثق عنها من تدابير وأفكار ؟.

❁ أم هل جمدت عقول المسلمين وعجزت عن مقاومة هذه الهجمة العلمانية ؟ أم هو نتاج طبيعي لحكومات المسلمين في فترات سابقة ؟ .

❁ أم تسللت العلمانية بأفكارها في عقول مجتمعاتنا نتيجة للهزيمة النفسية للمسلمين بعد هزائمها العسكرية ؟ .

❁ أم أن الخرافات والبدع زادت في مجتمعاتنا حتى طمست عقول المسلمين وقلوبهم تجاه ثوابتنا الإسلامية ، فخلقت جواً مناسباً للعلمانية ؟ .

❁أم أن هؤلاء ـ العلمانين ومن على شاكلتهم ـ على الصواب ونحن لاندري؟! .

❁ أم حدث ذلك لوجود الإزدواجية في مجتمعاتنا ، أي قبولنا الإسلام كعقيدة ، ورفضنا له كتشريع ؟ .

❁ ثم كيف الخلاص والخروج من هذا التيه الذي طالت فترته الزمنية ؟ .

يجب أن يظل نزيف التساؤل مفتوحا حتى نصل إلى معالجة أوضاعنا ، وحتى نعيد تكوين مجتمعاتنا .

كما يجب أن لا نبحث عن الأسباب التي أوصلتنا إلى هذه الحال بعيداً عن أنفسنا ، بل نطرح جميع الأسباب، ونبدأ بأنفسنا أولاً ؛ لأنه لو لم تكن في مجتمعاتنا قابليةً للاستعمار لم نكن لنستعمر ، كما أننا خضعنا لأننا أوجدنا في أنفسنا قابلية للخضوع ، وهذه حقائق نتعلمها من التاريخ ، وبهذا يكون البحث منطقيا في أسلوبه وغايته .

ومن المشاكل التي تعوق حركتنا أننا عندما نستعرض نشأة العلمانية ، وفكرها ، وآثارها في أوروبا ،فإننا نركز خطابنا على الجوانب الأخلاقية ، والمفاسد الاجتماعية الناتجة عنها على الأفراد والمجتمعات ، ونتجاهل أننا نستعرض مجتمعات غربية لاترى ذلك عيبًا ولا تخجل منه، بل هم ينظرون فقط إلى ما يحققه الفرد من متع مادية ؛ لأن فلسفة العلمانية التي يحيا بها الغرب هي صرف الناس عن الاهتمام بالغيبيات ، والفصل بين حياة الناس والدين ، والاهتمام

بالحياة المادية وحدها . والعلمانية تقوم على نظام أسس على مبادىء الأخلاق الطبيعية المستقلة عن الأديان ، بل هي رافضة ومنكرة للأديان في الحقيقة .

فهم في حقيقة الأمر لايشعرون حتى بالحرج من انتقاداتنا بل يسخرون منا ، ويعدون ذلك تخلفًا منا ، وأننا مازلنا بعيدين عن المدنية الحديثة .

ثم أننا ندعوا إلى الإسلام دين ودولة ، ولكن أين هي تلك الدولة الإسلامية التي ندعوهم إليها ؟! .

إننا ندعوا إلي شيء ليس له وجود فعلي على مستوى العالم الإسلامي !.

ولامفرّ أمامنا إلا أن نُوجِد هذا المجتمع الإسلامي الذي ندعوا إليه ، ولا مفر أمامنا إلا أن نثبت تفوقه ، وهو على عقيدته الإسلامية تفوقه الروحي ، وتفوقه المادي . وإلا ما الفائدة من حديث علمائنا المتكرر عن مفاسد الحضارة الغربية الأخلاقية والنفسية والاجتماعية ، وأخطارها على العالم باثره ... إلخ ، ونحن على هذه الحال من التراجع الحضاري في معظم مجتمعاتنا .

فيجب الاتجاه نحو بناء المجتمع المسلم،ويجب أن نتحرر من البدع والخرافات ، وأن يأخذ الدين الإسلامي موقعه ودوره التربوي،ويقوم بدوره في قيادة المجتمع.

والدعوة هنا موجهة لعلمائنا ودارسينا أن يركزوا البحث في مجتمعاتنا، والأثر الذي يستطيع أن يحدثه الإسلام في شتى مناحي الحياة،والأساليب الصحيحة لتحقيق ذلك ، لابد أن نواجه أنفسنا،ولاضرر أن نكشف عن أخطائنا وخطايانا ، ولكن الضرر كل الضرر في استمرارنا، وفي إصرارنا على البقاء على تلك الحال.

ولقد سألت نفسي كثيراً - نتيجة لأقوال كثير من العلماء والخطباء - :

لو أن مجتمعاتنا الإسلامية ظلت بمنأى عن الغرب ، وعن تأثيره ، وعن كل مانرفضه من سلوكياته ... هل كان حال مجتمعاتنا أفضل ؟ أي أكثر تطوراً مثلاً أو أقوى عقيدة وتديناً ؟!.

إنها أسئلة صعبة على النفس ، ولكنها تكشف حقيقة انحدار مجتمعاتنا ،

وتعري كل ما نحاول ستره من ضعف، وتخلف وبعد عن جوهر الإسلام والعقيدة الإسلامية ...والتاريخ يصرخ في وجوهنا بهذه الحقائق ، والتي لا تستطيع إخفائها بلاغة الخطباء، أو رقة الوعاظ، أوتبرير العلماء، أو حتى كثرة عدد المسلمين على مستوي العالم .

ومن الحقائق الثابتة أن استمرار المجتمعات وتطورها لاشك في أنه يستمد قوته من التجديد المستمر في هذه المجتمعات، والإسلام ينفرد بخاصية التجديد ، وهي من كمال الدين الإسلامي الخالد ، وقد أعجزت الغزاة قديمًا وحديثًا ـ غزاة الأرض ، وغزاة الفكر ، وغزاة المجتمعات ـ .

وهذه الخاصية ـ التجديد ـ في ديننا الإسلامي لا تخضع للتزوير أو التلفيق أو الكذب ، فكل المحاولات التي يقوم بها العلمانيون ومن يدورون في فلكهم لإفراغ الدين من محتواه بدعوى « التجديد » التي يزعمونها زوراً وكذباً كلها محاولات يائسة ، بل يمكن وصفها بالغباء ، على الرغم من ادعاء أصحابها بأنهم من كبار المفكرين ؛ وذلك لأن سر تجديد دين الأمة الإسلامية كامن في الإسلام داته . فالإسلام نسيج إلهي لايقبل دخيلاً عليه من فكر البشر أيا كان ، ومهما ارتقى هذا الفكر ، ومهما بذل أصحابه أو أنصاره من محاولات لإلصاقه ، والالتحام بجوهر الإسلام ، ومهما طال الزمن عليه فإن مثل هذا الفكر سيظل فكراً بشرياً محدوداً لا يلبث أن يسقط ، وهذا ثابت عقلاً ، وثابت بمرور السنين ، وباستقراء التاريخ ، فالعقيدة الإسلامية ، والشريعة الإسلامية لاخوف عليها مطلقًا ؛ فالدين الإسلامي نسيج رباني لايختلط به صنع البشر فهو الرسالة الخاتمة للبشر ، ولكن الخوف على هؤلاء المسلمين ، وما يتعرضون له من فتن أو تشويش قد يفسد عقيدتهم . فالدين الإسلامي محكم بإحكام آيات القرآن ، ومحفوظ بحفظه ، وقد تعهد الخالق ـ سبحانه وتعالى ـ بحفظه .

قال تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [الحجر : ٩] .

وعلى مدار التاريخ كان المعاندون والمعادون للإسلام هذا هو دأبهم وديدنهم، ويتخبطون ثم يسقطون ،ويظهر ضعف فكرهم، ويصبح ما فعلوا مثاراً للسخرية، ودليلاً على العجز ، وتظل الثوابت الإسلامية كما هي ، وكما جاء بها الرسول ـ ﷺ ـ . ولكن علينا أن نعترف من استقراء التاريخ أن المجتمعات الإسلامية قد جمدت فكريًا وحضاريًا منذ فترات طويلة تسبق حتى بداية ظهور العلمانية في الغرب، فلقد أصاب مجتمعاتنا بكل مؤسساتها الدينية والعلمية والإدارية والاجتماعية جمود وعزلة ، وصارت في حالة بالية ، كوُنت بمرور الزمن داخل المجتمعات الإسلامية قابليةً للغزو ، وقابليةً للتبعية والتخلف ، وقابليةً لانتشار الخرافة والبدع ... سهلت على الغرب أن يقوم بغزونا في شتى مناحي الحياة ، وظل الوضع ينحدر من سيء لأسوء،حتى وصل الأمر أن تقطعت العقول العربية والإسلامية تائهة بين الشرق والغرب ، وتقلبت في معظم الاتجاهات الفلسفية والفكرية ، واتبعتها اتباع الذليل ، اتباع الجاهل ، أو قل اتباع التائه ... ومما زاد الأمرُ سوءاً ما وصل إليه الغرب والشرق الغير مسلم على حد سواء من تطور مادي، وتقدم علمي وتكنولوجي وقوة عسكرية .

لذا يتوجب على علماء المسلمين ومفكريهم وقادتهم خاصة العرب أن يخضعوا كل ذلك للبحث وللدراسة ، وأن يفككوا كل الأسباب التي وصلت بالأمة الإسلامية والعربية إلى هذه الحال من الضعف والتخلف والهوان ، وأن يعملوا على إعادة تكوين العقل المسلم ، وعلى نشر العلم والثقافة الإسلامية بين كل فئات المسلمين، وهذا كفيلٌ بتصحيح جزءٍ كبيرٍ من مسار العقول، وأن يفضح ويعري كلّ زيفٍ يصدر إلينا أويستورده البعض،وحجج هؤلاء ـ العلمانين وأذنابهم ـ واهيةٌ لاتصمد أمام العقل المسلم الواعي ، ومواجهة هؤلاء وأمثالهم تكون بنشر الوعي ، والمعرفة بين المسلمين بما يناسب طبيعة ، وتطور العصر الذي نعيشه ـ عصر العولمة ـ .

إن من عظمة الإسلام أنه لا إكراه فيه ، فمن شاء فليؤمن ، ومن شاء فليكفر ،

وأنه جعل المسلم هو من يراقب نفسه ، ويقبل على العمل بحرية تامة ، وبقصد الإصلاح . نعم وضع الإسلام النظم العامة والجزاءات ؛ وذلك ضروري لإقامة المجتمعات وصلاحها ، ولحاجة البشرية إليها ، ولكن الإسلام يعمل على خلق الإنسان المسلم ، وترقيته سلوكيا ونفسيا وروحيًا وعقليًا بشكل مستمر ودائم ؛ فهو لب المجتمع وأساسه فيجب ألا نغفل هذه التربية ، فهي ضمانة للمجتمع المسلم ، تتكسر أمامها كل المحاولات التي تهدف إلى غزو الإنسان المسلم ثقافيًا ، أو تفتيته اجتماعيًا ، وهي ضمانة لتحقيق السعادة والأمن للبشرية في مرحلتها المقبلة ، كما تجعل مهمة العلمانية وغيرها من الأفكار التي تدور في فلكها مهمةً مستحيلة .

لذا وجب على الباحثين والدارسين الإسلاميين أيضًا أن يوجهوا جزءاً من أبحاثهم حول :

كيف نقيم مجتمعاً مسلماً في ظل هذه العولمة ؟

إن الإجابة عن هذا السؤال تعني الوصول إلى القاعدة الإسلامية لمجتمع هذا العصر ، والتي تحقق الأمن للجميع .

إن العالم والبشرية بأسرها في تطورها المقبل في أمسّ الحاجة إلى الإسلام كعقيدة وكشريعة ؛ فالأخطار المقبلة عليها البشرية في ظل النظرة النفعية القاصرة لفئة من البشر لتثير الرعب والفزع بسبب ماوصل إليه الإنسان ـ ومازال يحاول المزيد ـ من وسائل التدمير التي لاتفرق ، بل ويبقى تأثيرها المدمّر سنينًا طويلة ، وعلى الرغم أن البشرية مازالت في مراحلها الأولى من العولمة الشاملة إلا أن هذه الحضارة العظيمة تبدو مشوهة وأكثر دموية،وأكثر قسوة، وأكثر عنفًا في يد هذا الفكر البشري المادي النفعي المحدود الذي تتفجر فيه الصراعات بشكل مستمر، فهو يستمد وجوده واستمراره من فلسفة الصراع المستمر،وكل مفكريه يبشرون بذلك؛ فنجد مؤلفاتهم تتحدث عن : صراع الحضارات ، نهاية التاريخ ،

نهاية العالم .....إلخ.

وبالرغم من ذلك نجد غالبية من مفكرينا الكبار وكتابنا يقفون عند وصف حال المجتمع في فترات معينة ، واكتفى الكثير من الباحثين بأن الطامّة الكبرى بدأت بإسقاط الخلافة الإسلامية العثمانية ، ثم أخذ الوضع يتدهور إلى ما نحن عليه الآن ، وأقصى ما يفعلون بعد عملية الوصف تلك هو استرجاع ذاكرة المسلمين التاريخية للمقارنة مع علماء ومجاهدين سابقين ، وهم يرون في ذلك قمة القيام بما يجب عليهم ، حيث ينفخوا في الأمة الإسلامية روح الجهاد ولكن هيهات بين ما يريدون ، وبين مايقومون به من عمل .

والأَوْلى بنا جميعًا أن نباشر العمل الذي باشره هؤلاء العلماء السابقون، وباشره هؤلاء المجاهدون ، لا أن نكتفي بأن نحولهم إلى قصص وحكايات تفقد تأثيرها الفعلي بمرور الوقت،ولايتجاوز دورها سوى الحزن والأسى على ما مضى.

ونشير هنا إلى أن كارثة العالم الإسلامي والعربي لم تبدأ بسقوط الخلافة الإسلامية العثمانية ، وإنما سبقت ذلك بكثير ، وكان السقوط المدوّي للخلافة الإسلامية النتيجة الطبيعية لتراكمات ضعف وتدهور المجتمعات الإسلامية المستمر ، بعد أن وقعت معظمها تحت سطوة الاحتلال الغربي .

فلا مناص أمام المسلمين من مواجهة الحقائق ومراجعة تاريخهم للوقوف على الأسباب الحقيقية التي أدت إلى هذا الإنهيار المذري ، ولا مناص أمام المسلمين من استرجاع العقيدة الصحيحة لتحكم مجتمعاتهم .

إنَّ توجهنا إلى البحث في تجديد دين الأمة ؛ لتحسس سبل اليقظة ، والنهضة الإسلامية ليستدعي الكشف عن أسباب التراجع وملابساته وأماراته ، ويتطلب الكشف عن الهوية الحضارية العربية الإسلامية المتميزة ، تلك الهوية التي تحدد مهام اليقظة والنهضة في إعادة اكتشافها ، والكشف عن سماتها وقسماتها وخصائصها ، وبلورتها في مشروع حضاري عربي مسلم .

وكما نعرف ، فاللغة العربية ليست شرطاً في التدين بالعقيدة الإسلامية ؛ ولكن العربية شرطاً للتفقه في الإسلام والاجتهاد .. فأهل الحل والعقد ـ السلطة التشريعية ـ في المجتمع المسلم،وأهل الإمامة أي ـ قمة السلطة التنفيذية ـ ، وأهل الحكم بما أنزل الله ـ أي السلطة القضائية ـ ، لابد وأن يكونوا من الذين بلغوا في العربية وعلومها المرتبة التي تتيح لهم فقه القرآن ، والسُّنَّة ، ومصادر التشريع .

أي أن الدولة الإسلامية لابد وأن تكون : عربية اللغة والفكر والثقافة بصرف النظر عن لغة وقومية الرعية والجمهور، ومن هنا جاء ارتباط الإسلام بالعروبة وحضارتها ، وصارت العربية لغة الإسلام ، تنتشر بانتشاره ، ولم يعارض في ذلك سوي " الشعوبيين "(١) ، الذين أظهروا العداء للعروبة وحدها ، فلقد قام الدليل على عدائهم للإسلام أيضًا .

لكن تلك العروبة عروبة الفكر والثقافة ـ العروبة الحضارية ـ التي أثمرها الإسلام ، وليست عروبة الجاهلية وعصبيتها العرقية القاصرة ؛ فلقد تغيَّر معنى العروبة مع الإسلام بالمضمون الإسلامي ـ الحضاري ـ للعروبة، وبما يتناسب وعالمية الإسلام ، والذي أرساه الرسول ـ ﷺ ـ عندما قال : " **ليست العربية بأحدكم من أب أو أم ، وإنما هي اللسان ، فمن تكلم العربية فهو عربي** "(٢) .

والعروبة " هوية " ـ جوهر ثابت ـ ، وليست مجرد تراث ، وقد أثبت التاريخ ذلك ، فلقد سيطر الترك المماليك ، والترك العثمانين ما يقرب من عشرة قرون ،

---

(١) تعرف الشعوبية بانها تيارات مختلفة يجمعها العداء للعرب، جاء في الانسكلوبيدية البريطانية (الشعوبية كل اتجاه مناوئ للعروبة (**anti-arabisim**) ، وهذا ما جاء في تعريفات قدامى علمائنا المسلمين، فقد قال الامام القرطبي ـ رحمه الله ـ :(الشعوبية تبغض العرب وتفضل العجم) تفسير القرطبي / ١١ /١٨٩ ونحو هذا لشيخ الاسلام ابن تيمية انظر اقتضاء الصراط المستقيم / ١٤٩ إلا انه نسب الشعوبية الى النفاق والكفر فقال : (ومن الناس من قد يفضل بعض أنواع العجم على العرب، والغالب ان مثل هذا الكلام لا يصدر إلا عن نوع نفاق إما في الاعتقاد وإما في العمل المنبعث عن هوى النفس) . وقال أيضًا : (إن بغض جنس العرب ومعاداتهم كفر ، أو سبب للكفر) ١٥٦ .

جاء في القاموس المحيط : "والشعوبية حركة سياسية عنصرية ظهرت بوادرها في العصر الاموي ، إلا أنها ظهرت للعيان في بدايات العصر العباسي" .

(٢) تهذيب تاريخ ابن عساكر .ج٢ ص ١٩٨ . طبعة دمشق .

وسيطر الغرب وبذل كل المحاولات هو الآخر في القضاء على العروبة ، ولكنها ظلت شامخةً راسخةً مستعصيةً على التحلل ، فهي جوهر ثابت عام ، له صفة الاستمرار وليست مجرد تراث .

وعند الحديث عن المحاولة لبداية رصد الانحراف عن شريعة الأمة الإسلامية

نجد العالم الجليل " أبو الأعلى المودودي " قد أرجعها إلى عهد الخليفة عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ ، ففي رأيه أن الأمر بعد أن انتقل إلي عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ سار على نهج الخلافة الراشدة عدة سنين ، ثم حدثت الثغرة التي نجم عنها قرن من الجاهلية من جديد ! (١) ، ثم يقول المودودي ـ حتى لايلتبس الأمر ـ : "جاء بعض أفاضلنا المحترمين للإفتاء يستنبطون من جملتنا هذه النيل من قدر سيدنا عثمان ـ رضي الله عنه ـ ، والحق أني لم أقصد بها سوى أن عثمان ـ رضي الله عنه ـ كان ينقصه بعض تلك الصفات اللازمة للحكم والأمر والتي كانت على أتمها ، وأكملها في سيدنا أبي بكر وسيدنا عمر ـ رضي الله عنهما ـ ، وهذه مسألة تاريخية يجوز للباحثين في التاريخ أن يأتوا فيها بآراء مختلفة ، وليست بمسألة كلامية ، أو فقهية حتى يصدر أهل الإفتاء آراءهم بشكل الفتاوى (٢) .

ثم يمضي فيصف بالجاهلية كل الدول التي تعاقبت على حكم المسلمين أموية وعباسية وتركية باستثناء العامين اللذين حكمهما خامس الخلفاء الراشدين عمر ابن عبد العزيز (٩٩ – ١٠١ هـ) .

وهذه مبالغة التبست على عالمنا الجليل ؛ حيث ظلت الأمة الإسلامية ردحًا من الزمن متماسكة تحكم بالإسلام ، وتقوم على أمر الدين ونشره في كل بقاع الأرض ، وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، وهذا ثابت تاريخيًا، رغم وجود

---

(١) نظرية الإسلام السياسي . أبو الأعلى المودودي . جدة : الدار السعودية للنشر والتوزيع . ط ١ . ١٩٨٥ م .

(٢) موجز تاريخ تجديد الدين وإحيائه ، وواقع المسلمين وسبيل النهوض بهم ص ٤٠ . أبو الأعلى المودودي . ترجمة الرسالة الأولى / محمد كاظم سباق . ترجمة الرسالة الثانية / محمد عاصم الحداد . الدار السعودية للنشر والتوزيع . ١٤٠٥هـ- ١٩٨٥م .

مخالفات وأخطاء كبيرة؛ لذلك لا يمكننا إصدار الحكم للتاريخ لبداية الانحراف عن شريعة الأمة الإسلامية لهذه الخلافات أو المخالفات .

وقد تناول الدكتور والمفكر الإسلامي محمد عماره " ٢ " هذه الفكرة ، وكان قريبًا جدًا من تحديد بداية انحراف الأمة عن أمر دينها ، لكنه لم يربط هذه البداية بسببها بشكل مباشر (١) .

فقد أشار الدكتور محمد عمارة إلى التيار العقلاني ، والذي مثله" المعتزلة" في فترة هامة في التاريخ الإسلامي، وهي فترة التحامه بالفلسفة والفلاسفة اللاهوتيين من أبناء الملل الأخرى،وكيف أنهم وظفوا الفلسفة سلاحاً بيد الإسلام، وكان لهم في هذا الميدان فضلٌ كبير في نشر الإسلام في البلاد التي ازدهرت فيها الأبنية الفكرية، التي استرشدت بميراث اليونان الفلسفي والمنطقي في المناظرة والجدل .. ولكنه أغفل أن بداية الخلاف ـ الذي أدى إلى بعد المسلمين عن شريعتهم ، أو عن القيام بأمر تجديد دينهم بالمعنى الصحيح ـ قد بدأ معهم ـ أي مع المعتزلة ، ولم يبدأ مع تحريم التيار العقلي فيما بعد؛ حيث أنهم بالرغم من دورهم الكبير في خدمة الإسلام ، إلا أنهم أرادوا أن فكرهم بالقوة ، أي أرادوا أن يعطوا فكرهم صفة " الاستمرارية والخلود " أي إلصاقه بالنسيج الرباني ـ ثوابت الإسلام ـ دونما إدراك منهم لخطورة ما يصرّون عليه من فعل ، وكانت فتنة خلق القرآن ، والتي انتهت بسجن الإمام المجاهد " أحمد بن حنبل " ـ رحمه الله ـ ، والذي رفضها رفضًا قاطعًا ، وثبت على موقفه في لحظةٍ فاصلةٍ في التاريخ الإسلامي ؛ ولذلك أغرّوا به الخليفة العباسي" المأمون" ـ وكان معتزليا على مذهبهم ـ ، وأغروه بفرض آرائهم ، أي جعلها من" ثوابت الدين الإسلامي " ، وهو ما يعارض منهج النقاش العقلي الذي التزموه وقبول الآخر وصولاً إلى الرأي الأصوب ويتناقض وحقيقةً أن فكرهم ، والذي مع ضخامته ،هو في نهاية الأمر

(١) الطريق إلى اليقظة الإسلامية . ص ٩٩ ، ١٠٨ . د/ محمد عمارة . دار الشروق . ط١ . ١٩٩٠ م .

فكرٌ بشري محدود ، وقد يمثل ـ فقط ـ مجرد مرحلة من مراحل تجديد الفكر الإسلامي ، ولايرقى إلى صفة الاستمرارية والخلود ، والتي تختص بها ثوابت الدين الإسلامي ـ القرآن الكريم والسُّنَّة النبوية المطهرة ـ ، وهي نسيج رباني من الخالق ـ سبحانه وتعالى ـ لايرقى إليه فكرٌ بشري مهما بلغ هذا الفكر .

ودامت محنة خلق القرآن في الأمة الإسلامية فترةً ليست بالقصيرة في عهد الخلفاء العباسيين الذين كانوا على مذهب الاعتزال، وذلك من نهاية حكم الخليفة المأمون ٢١٨ هـ-٨٣٣ م،واستمرت في عهد المعتصم،ثم عهد ابنه الواثق.

وفي عهد الخليفة الواثق قام بقتل المحدث " أحمد بن نصر الخزاعي " ؛ لأنه لم يقل بخلق القرآن ، ولما جرى الفداء للأسرى المسلمين والروم سنة٢٣١ هـ ـ ٨٤٦م أمر ألا يفتدى من أسرى المسلمين إلا من قال بخلق القرآن ، فمن رفض ترك في أيدي الروم، وقتل الواثق من لم يقولوا بخلق القرآن من أهل الثغور .

وظل الإمام أحمد بن حنبل ـ رحمه الله ـ صابراً محتسبًا ، ثابتًا على رأيه في فترة فاصلة في تاريخ الإسلام ، مدركاً لحقيقة الفارق الجوهري بين الفكر البشري والتصوير الإلهي الذي له صفة الخلود .

ثم حدث أن تولى الخلافة خلفاء عباسيين انتصروا لاتجاه الأخذ بالنصوص ، ورفض العقل والرأي ، وكانت البداية مع الخليفة المتوكل " ٢٣٢هـ ـ ٤٨٧ م ؛ فأبطل القول بخلق القرآن ، وأخرج الإمام أحمد بن حنبل ـ رحمه الله ـ من بيته الذي كان محدد الإقامة به ، وغضب على أحمد بن داؤود، زعيم التيار العقلاني ـ المعتزلة ـ وزج بهم في السجون مع الملاحقة للفارين منهم ، وانقلب الحال وأصبح " المحدثين" هم أصحاب الرأي الأوحد ، ولكن الأمر أخذ يتطور في الاتجاه المغالي حتى وصل أقصاه في عهد الخليفة " القادر بالله "ـ ٣٨١ ـ ٤٢٢هـ/ ٩٩١ ـ ١٠٣١م ـ إلى تحريم التيار العقلاني .

وهذان الموقفان ـ موقف المعتزلة أولاً ، ثم بعد ذلك موقف أصحاب الأخذ بالنصوص ـ يمكننا أن نسند إليهما البداية الحقيقية لانحراف الأمة الإسلامية عن أمر دينها ، وابتعاد المسلمين تدريجيًا عن منهج الوسطية الإسلامية ، وبداية ضمور طاقات الإبداع وملكات الاجتهاد ، الذي أدي فيما بعد إلى ابتداع المماليك ـ لأول مرة في مسيرة الحضارة الإسلامية ـ الازدواجية القانونية والقضائية .. فأبقوا " حكم الشريعة " في الأحوال الشخصية وقضاء العامة ، أما الدولة " الدواوين السلطانية " والعسكر " أي الطبقة الحاكمة " ، فإنهم استعاروا لقضائهم وتنظيم شؤونها ، والفصل في منازعاتها القانونية ما كان سائداً من القوانين والنظم في المواطن الأصلية التي جلبوا منها ، والتي وضعها جنكيز خان " ٥٦٢ـ ٦٢٤ هـ / ١١٦٧ ـ ١٢٢٧ م " الوثني[١] . وكان ذلك شاهداً على التحولات التي مثلت التراجع الحضاري للأمة الإسلامية .

ومنذ ذلك التاريخ والهوة تتسع بين القانون الإسلامي ـ فقه المعاملات ـ ، وبين واقع االمسلمين .

وقنع فقهاء السلطان بالتبرير لما حدث ويحدث، وقنع فقهاء العامة بالتفصيل في فقه العبادات ، وهذا ثابت تاريخيًا ، ويتضح من الغنى الزائد في " فقه العبادات " ، والفقر المخل في " فقه المعاملات " الذي جمد وتحجر .

ونحن لانقصد الإساءة لهؤلاء الخلفاء أو المماليك ، فلقد كانوا مسلمين ، وقاموا بأدوار عظيمة في حياة الأمة الإسلامية في صد المغول والتتار، والتصدي للصليبين، وحموا الأمة الإسلامية ووجودها في فترات فاصلة في التاريخ الإسلامي، وما حدث مما ذكرناه لانستطيع محاسبتهم عليه ، فهذه استنتاجات

---

(١) ذكر ذلك المقريزي في الخطط ص٦٠ ، ٦٣ . طبعة القاهرة ، والاقتباس هنا من كتاب "الطريق إلى اليقظة الإسلامية . ص ١١٠ د/ محمد عمارة . بتصرف . دار الشروق ط١ ١٩٩٠ م

فكرية بعد قرون طويلة من الأحداث، وتدخل بشكل ما كحلقة من حلقات تاريخ الأمم والدول في ظل ظروف تاريخية واجتماعية معروفة لنا تمامًا الآن ، ولكن توصيفنا هنا هو محاولة لدراسة التاريخ الإسلامي للكشف عن بداية الداء، وعن الأسباب الحقيقية التي أدت إليه ، وعن المسؤلية الكبرى على علماء المسلمين ؛ لنتخلص من هذه الإزدواجية ، وحتى نعرف الواجب الملقى على عواتقنا لنقوم به ، ولنحدد أهدافنا ، ونضع الأساليب الإسلامية الكفيلة بالوصول إليها، وأيضًا لتكون خطوة في طريق إخراج المسلمين من دائرة التخلف والتراجع الحضاري ، وإجلاء الإسلام في صورته التي نزل بها على خاتم الأنبياء والمرسلين محمد رسول الله ـ ﷺ ـ ؛ ليكون هاديًا للبشرية إلى قيام الساعة .

وحتى يكون التشخيص دقيقًا، فإن أمر تجديد دين الأمة الإسلامية لم ينطفأ مطلقًا في هذه الأمة ؛ فهو من كمال الدين ،ولكن يمكننا القول أنه كان متجزيء هنا وهناك مع اتساع الأمة الإسلامية وتقطع أواصرها بين الشرق والغرب ، وهذا التجديد هو الذي حافظ على المجتمعات الإسلامية،وأبقى المسلمين متمسكين بجذور الدين الإسلامي، والحضارة الإسلامية ، وأعجز على مرِّ التاريخ كل أعداء الإسلام ، وقد يئسوا من النيل من الإسلام ، وصدق الله العظيم في كتابه الكريم القائل : ﴿ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ فَلا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا ﴾ [المائدة : ٣] .

وعلى علماء الأمة الإسلامية في هذا العصر أن يتنبهوا ؛ فلقد بدأ الصراع يتكشف عن علمانين عرب يطرقون كل السبل لهدم الدين الإسلامي ، وهم يعيشون بين المسلمين، ويدعون أنهم مسلمين،ويتقولون على الإسلام ماليس فيه، وهو منه ومنهم براء ، مستعينين بالقوى الغربية والقوى المعادية ، وبدعمها المادي والعلمي و... وقد وضحت اتجاهاتهم ونوايهم وخططهم في جميع الدول

الإسلامية ، عربية وغير عربية ، ووضحت لنا أهدافهم لهدم العقيدة الإسلامية ، وطمس الشريعة الإسلامية ، في حياة المسلمين .

فهل يظل المسلمون خلف حدودهم الإقليمية قابعين في دوامة خلافاتهم أو البدع التي ابتلعتهم قرونًا طويلة ،ولا زالت تسيطر عليهم منذ الفتنة الكبرى بعد مقتل الخليفة عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ ؟ ، وتلك الخلافات والبدع لم تحسم في الماضي ، ولن تحسم مستقبلاً إلا بالرجوع إلى ثوابت الدين الإسلامي ، ذلك النسيج الإلهي الخالص من كل فكر بشري .

والدعوة هنا لعلماء وحكام الأمة الإسلامية ليخرجوها من هذه المتاهة التاريخية ، ومن هذا الجمود العقلي والتراجع الحضاري ؛ فدور المسلمين قد حان لقيادة البشرية في مرحلتها المقبلة ، في إطار عولمة شاملة بدأت تطل من كل بقاع الأرض .

تأليف

فايز عزيز محمد إسماعيل

عفا الله عنه